المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٦ — ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٦٥

التعليم ومراميه

كيف تفك الاغلال وتنطلق في رحاب الحرية

نشرت في مقتطف يناير الماضي بحثاً في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية عنوانه « فك الأغلال » دار البحث فيه حول أمرين جوهريين. أولهما: الغرض من التعليم: وانتهيت فيه الى أن الغرض من التعليم هو إخراج رجال مستقلين ونساء مستقلات في الحياة. وثانيهما: الطريق الذي يوصلنا الى هذه الغاية العليا، وانتهيت فيه الى أن اتصالنا بالثقافة التقليدية هو ذلك الطريق. قلت:

« عمد الأوربيون منذ عهد النهضة الأدبية الحديثة الى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا المهاد الأول والسيادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا الى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن. فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهما مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص. ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً. بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلاً من أصول التثقيف العالي. فلم كان ذلك؟ ولأي من الأسباب

الجوهرية التي امتاز بها الأوروبيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة ؟ انما ترجع كما قلنا الى أن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون ملتقىً للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة احتفاظاً بالطابع الأصيل في الأمة ، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها ، وليكون في الوقت ذاته العدَّة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة ، وتكييفها تكييفاً يتفق وروحها ومشاعرها وأخيلتها . وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل اتبعنا في نهضتنا هذه السبيل القويمة ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول الى هذه الغايات العليا ؟ »

***

انتهيت من ذلك الى القول بأن التعليم لم يكفل لنا شيئاً من هذا — « وأقصد به التعليم بناحيتيه : الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغةً وديناً ، وأعني بها الأزهر ، فانه لم يلقح بشيء من الأساليب الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له عناية الدم الجديد يجري في العروق القديمة ، وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة : أي الثقافة الأوربية . وأعني بها ناحية التعليم الرسمي ، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية ، لتكون فيصلاً حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ويخرج منه مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة . ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل ، ومثل التعليم الرسمي كمثل كائن حي أكل ولم يهضم : فناحية جائعة ، وناحية متخومة » .

وظاهر من هذا الاتجاه أن وجهتي في القول بالثقافة التقليدية ووجوب اتخاذها أساساً لفلسفة التعليم في مصر ، تسمو على البحث في التفاصيل ، وتسمو على البحوث التي يجري عليها الرأي في اصلاح التعليم في وزارة المعارف أو غيرها من الجهات التي تعنى بالكلام والبحث في التعليم .

الناحية التي تكلمت فيها في « تلك الأغلال » هي الناحية الثقافية من التعليم ، الناحية التي تنظر الى الغرض الأعلى من التعليم ، وكيف ينبغي أن يكون أسلوب التعليم ليتصل بمنافعنا الدنيوية والفكرية . لا يهمني بعد الأخذ بالأصول التي تقوم عليها هذه الفكرة ، أن

يكون التعليم في رحلة منه مقسماً درجة أو درجتين أو عشرين درجة . وانما الذي يهمني أن نسري روح هذه الفكرة الفلسفية في مدارج التعليم جميعاً .

الفكرة التي بثثتها في فلك الأغلال لا تعني بالتعليم العام وكيف يجب أن يكون من الناحية العملية . ولا تتصل بفكرة تعليم الشعب جميعه أو الاقتصار على نسبة معينة منه . إنما هي تعني بما يجب أن يكون عليه نهج التعليم موجهاً وجهة تقليدية صرفة ، تصلنا بأبعد الماضي كما تصلنا ببرهة الحاضر . هي تعني بالفلسفة العليا التي تتجه بالفكر الى غاية سامية هي اخراج ذوات عاقلة حرة مستقلة تعرف أن ماضيها أساس مستقبلها ، وتخلق فيهم القدرة على تمثيل ما تتلاقى من مختلف الثقافات .

من الأشياء التي تقع في نفسي موقع الفكاهة ، بل انه مما يجب أن يتندر به ، قول البعض أن فلاناً ثقافته سكسونية وفلاناً ثقافته لاتينية ، وغيرهما ثقافته المانية أو روسية . شيء يثير الضحك ويثير البكاء معاً ، وأين الانسان الذي ثقافته مصرية ؟ فتش عنه إذن بمصلحة ديوجينيس !

معنى هذا أن فلاناً سكسوني الثقافة أنه انجليزي في إهاب مصري ! ومعنى أن فلاناً فرنسي الثقافة انه لاتيني في جلد مصري ! وأين فلان المصري ؟ لقد ذهب ولا شك مع الريح . ريح الاستعمار الذي وضع لنا أسس التعليم ولا نزال نجري على روحها ، فنظمها من ناحية ، ونحور فيها من ناحية أخرى ، من غير أن نعمل ساعة واحدة على ازهاق تلك الروح الخبيثة ، التي ساقتنا أمامها حتى بلغ بنا الجهد هذا المبلغ الذي يشعرنا بأننا على أبواب مشكلة ، هي ولا شك مشكلة المستقبل القريب .

***

كيف السبيل الى خلق المصري الذي يشعر بأن له ذلك الماضي المتصل بمصر الفرعونية ، ومصر العربية ، القادر على أن يخلق مما يتلقى عن ماضيه وتقاليده تصوراً جديداً يجعله من أبناء القرن العشرين ؟ ذلك هو الغرض الذي رميت اليه في بحثي الذي أشرت اليه .

الطبقة غير المتصلة وبخاصة طبقة الفلاح ، هي الطبقة المتصلة بثقافة مصر التقليدية ، ثقافة تلقاها الفلاح بالتوارث . ولكنها على تفاهتها ثقافة أخرجت لنا الرجال الذين أخرجت

الزلاّح الذي هو فقار مصر. أخرجته رجلاً مستقلاً منتجاً أضعاف ما يستهلك. فهو قوة عاملة مستقلة حرّة منتجة.

والطبقة المتعلمة ماذا أخرجت لنا بتعليمها؟ أخرجت لنا موظف الحكومة المتواكل على مرتبه، وأخرجت لنا المتعطل، وأخرجت لنا رجل المقهى، وأخرجت لنا الأفاك والمستهتر. ولكن ما السبب في هذا؟

« السبب في كل هذا أننا بعدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي، وهمنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً يسلك، لا الى الأمام لنصير أوربيين صرفاً، ولا الى الوراء لنعود الى مصريتنا مرّة أخرى. وإذن فنحن في التيه. ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييماً صحيحاً. وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية. حقيقة أنّ ثقافتنا التقليدية هي المنبع الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها نكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي من الحيوان. فيه تهضم الآداب الأخرى ثم تمثل أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا. وفي الوقت نفسه تطرد النفايات. تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتفسده. لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها الى خارج جسمه المهدّم الضئيل » (١).

***

إذا أردنا أن نحيي المصرية الصحيحة، فلابدّ لنا أولاً من الاتصال بثقافتنا التقليدية، ثقافة مصر، وثقافة العرب، فنهما ميراثنا. وكل تعليم لا يقوم على هذا الأساس بعيد أن يخرج لنا الرجل المستقل الحر المنتج.

اذا أردنا أن يكون للتعليم غاية، فلنعمل على اخراج الرجل المستقل والمرأة المستقلة. ولكن أين هما الآن؟ فتش عنهما بمصباح ديوجنيس.

اسماعيل مظهر

(١) تلك الاطلال ص ٣